شهادة حول «أولاد حارتنا»
بقلم: الدكتور أحمد كمال أبو المجد

حين وقع الاعتداء الغادر على أديب مصر وكاتبها الكبير نجيب محفوظ، كنت خارج مصر.. وحين عدت إليها طلبت من الصديق الأستاذ محمد سلماوى، وهو من تلامذته المقربين، أن يصحبنى إليه لنؤدى واجب الاطمئنان عليه.. ولكنه - وسط شواغله الثقافية - تأخر فى ترتيب تلك الزيارة حتى عاد الأستاذ نجيب محفوظ إلى بيته قبل أيام من عيد ميلاده الذى شاركه فى الاحتفال به كثيرون من محبيه ومقدريه.. وإذا بالأستاذ سلماوى يتصل بى ليخبرنى أنه رتب للزيارة موعدًا فى الخامسة من مساء اليوم التالى، وأننا سنذهب فى صحبته ومعنا المهندس إبراهيم المعلم، الذى تربطه ووالده بالأستاذ نجيب محفوظ علاقات ود قديمة وموصولة، ومعنا كذلك الإذاعى والإعلامى المخضرم أحمد فراج.

وعلى باب نجيب محفوظ استقبلتنا بالحفاوة المصرية المعهودة السيدة الفاضلة زوجته.. ثم جاء الأستاذ نجيب محفوظ فى خطوات ثابتة طمأنتنا على قرب اكتمال شفائه، وأخذ يرحب بنا فى ود شديد، ثم جلس بيننا.. وسادت فترة من صمت قصير، لأن أحدا منا لم يعد لهذا اللقاء أكثر من كلمات السؤال عن الصحة والتهنئة بعيد الميلاد.. ثم بدا لى - على غير ترتيب ولا إعداد - أن أقطع هذا الصمت.. فوجدتنى أقول: يا أستاذ نجيب، الجالسون معك الليلة كلهم من قرائك، جيلنا كان يجد فى كتاباتك ورواياتك شيئا بين فن الأدب وفن التصوير، وذلك بما نسجته فى وصف القاهرة وحياة أهلها، ونماذجهم المختلفة من وشى دقيق عامر بالألوان ملىء بالتفاصيل، حتى ليكاد القارئ يسمع فيه أصوات الناس ويرى وجوهم، ويتابع حركتهم فى شوارع القاهرة وأزقتها ومساجدها ومقاهيها، ويكاد - دون أن يشعر - يدخل طرفا فى علاقات بعضهم ببعض.. وكم من مرة تعرف بعضنا على أحياء القاهرة وشوارعها بما كان قرأه عنك فى وصفها وتصوير حياة أهلها.. وأضفت: ثم إنك يا أستاذ نجيب تظل - فى خواطرنا - قبل كل شىء وبعد كل شىء كاتبا وأديبا مصريا خالصا، لم تدجن كتاباته وآراؤه بتأثيرات غربية تنال من نكهتها المصرية ومذاقها العربى الأصيل..

وبدا من قسمات وجه الأستاذ نجيب محفوظ وحركة يديه أنه يقبل هذا الوصف له ولكتاباته

وأنه يرتاح إليه . . فشجعنى ذلك على أن أتقدم فى الحوار خطوة أخرى، فقلت: ويبقى أن نسألك عن رأى عبرت عنه منذ أسابيع قليلة حين بعثت برسالة وجيزة إلى الندوة التى نظمتها الأهرام تحت عنوان «نحو مشروع حضارى عربى»، فقد قلت للمشاركين فى الندوة: إن أى مشروع حضارى عربى لابد أن يقوم على الإسلام، وعلى العلم . . ولقد وصلت رسالتك ـ على قصرها ـ واضحة وصريحة ومستقيمة ولا تحتمل التأويل، ولكن يبقى ـ ونحن معك نسمع لك وننقل عنك ـ أن تزيد هذا الأمر تفصيلا، نحتاج جميعا إليه وسط المبارزات الكلامية التى يجرى فيها ـ ما يستحق الحزن والأسف ـ من ألوان تحريف الكلام وتزييف الآراء والافتئات على أصحابها . .

وفى حماسة شديدة، وصوت جهير ونبرة قاطعة، انطلق نجيب محفوظ يقول: وهل فى تلك الرسالة جديد؟ . . إن أهل مصر الذين أدركناهم، وعشنا معهم، والذين تحدثت عنهم فى كتاباتى كانوا يعيشون بالإسلام، ويمارسون قيمه العليا . . دون ضجيج ولا كلام كثير . . وكانت أصالتهم تعنى هذا كله . . ولقد كانت السماحة وصدق الكلمة وشجاعة الرأى وأمانة الموقف ودفء العلاقات بين الناس، هى تعبير أهل مصر الواضح عن إسلامهم . . ولكنى فى كلمتى إلى الندوة أضفت ضرورة الأخذ بالعلم، لأن أى شعب لا يأخذ بالعلم ولا يدير أموره كلها على أساسه لا يمكن أن يكون له مستقبل بين الشعوب . . إن كتاباتى كلها، القديم منها والجديد، تتمسك بهذين المحورين: الإسلام الذى هو منبع قيم الخير فى أمتنا، والعلم الذى هو أداة التقدم والنهضة فى حاضرنا ومستقبلنا .

وأحب أن أقول: إنه حتى رواية «أولاد حارتنا» التى أساء البعض فهمها لم تخرج عن هذه الرؤية . ولقد كان المغزى الكبير الذى توجت به أحداثها . . أن الناس حين تخلوا عن الدين ممثلاً فى «الجبلاوى»، وتصوروا أنهم يستطيعون بالعلم وحده ممثلا فى «عرفة» أن يديروا حياتهم على أرضهم (التى هى حارتنا) . . اكتشفوا أن العلم بغير الدين قد تحول إلى أداة شر، وأنه قد أسلمهم إلى استبداد الحاكم وسلبهم حريتهم . . فعادوا من جديد يبحثون عن «الجبلاوى» .

وأضاف: إن مشكلة «أولاد حارتنا» منذ البداية أننى كتبتها «رواية»، وقرأها بعض الناس «كتابا»، والرواية تركيب أدبى فيه الحقيقة وفيه الرمز، وفيه الواقع وفيه الخيال . . ولا بأس بهذا أبدا . . ولا يجوز أن تحاكم «الرواية» إلى حقائق التاريخ التى يؤمن الكاتب بها، لأن كاتبها باختيار هذه الصيغة الأدبية لم يلزم نفسه بهذا أصلا وهو يعبر عن رأيه فى رواية . .

وفى ثقافتنا أمثلة كثيرة لهذا اللون من الكتابة، ويكفى أن نذكر منها كتاب «كليلة ودمنة»، فهو مثلا يتحدث عن الحاكم، ويطلق عليه وصف «الأسد» ولكنه بعد ذلك يدير كتابته كلها داخل

إطار مملكة الغابة وأشخاصها المستمدة من دنيا الحيوان . . منتهيا بالقارئ فى آخر المطاف إلى العبرة أو الحكمة التى يجريها على ألسنة الطير والحيوان . . وهذا هو الهدف الحقيقى الذى يتوجه إليه كل كاتب صاحب رأى . . أيا كانت الصيغة التى يمارس بها كتاباته . .

قلت : الواقع أننى قرأت «أولاد حارتنا» منذ عدة سنوات ، وأذكر أننى تعاملت معها حينذاك على أنها رواية وليست كتابا ، ولذلك تفهمت ما امتلأت به من رموز تداخل فى صياغتها الخيال ، ولم أتصور أبدا أن كاتبها كان بهذا التداخل يحاول رسم صور تعبر عن موقفه من الحقائق التى يتناولها ذلك الخيال أو تشير إليها تلك الرموز . ولكن الذى استقر فى خاطرى على أى حال وبقى فى ذاكرتى منها إلى يومنا هذا ، والذى رأيته ـ معبرًا عن موقف كاتبها الذى يريد إيصاله إلى قرائه ـ هو تتويج حلقات روايته الرمزية بإعلان واضح عن حاجة «الحارة» ، التى ترمز للمجتمع الإنسانى ، إلى الدين وقيمه التى عبر عنها الرمز المجرد (الجبلاوى) حتى وإن تصور أهل الحارة غير ذلك وهم معجبون ومفتونون «بعرفة» الذى يرمز إلى سلطان العلم المجرد والمنفصل عن القيم الهادية والموجهة لأهل الحارة .

وتابع الأستاذ نجيب حديثه الأول قائلاً :

إننى حريص دائمًا على أن تقع كتاباتى فى الموقع الصحيح لدى الناس ، حتى وإن اختلف بعضهم معى فى الرأى ، ولذلك لما تبينت أن الخلط بين «الرواية» و «الكتاب» قد وقع فعلا عند بعض الناس ، وأنه أحدث ما أحدث من سوء فهم ، اشترطت ألا يعاد نشرها إلا بعد أن يوافق الأزهر على هذا النشر ، (ولا يزال هذا موقفى إلى الآن) .

قلت : إننى أتمنى ـ يا أستاذ نجيب ـ أن يسمع الناس منك هذا الكلام الواضح الذى لا يحتمل التأويل ، ليعرفوك منك بدلا من أن يعرفوك من خلال شروح الآخرين ، وائذن لى أن أقول إنى كنت واحدًا من الذين يجدون هذه المعانى التى حدثتنا بها الآن حاضرة فى ثنايا كثير من كتاباتك القديمة والجديدة ، وكانت تعبيرًا دقيقًا عن منهج جيلنا وجيل آبائنا فى فهم الإسلام ، فقد كانوا ـ وكنا معهم ـ نتنفس الإسلام تنفسا ونحيا به فى هدوء واطمئنان ، دون أن نملأ مجالسنا ومجالس الآخرين بالكلام الكثير عنه .

وحين أوشكت الزيارة أن تتحول بهذا الحوار العفوى إلى ندوة ، تدخل الأستاذ أحمد فراج قائلاً فى حماسة : كم كنت أتمنى أن يسمع الناس ـ كل الناس ـ هذا الحوار الهادئ حول هذه القضايا الساخنة . وأرجو أن يأذن لى الأستاذ نجيب محفوظ بتسجيل هذا الكلام كله مرة أخرى فى ندوة تليفزيونية قصيرة لا تتجاوز الدقائق العشر . . توضع بها النقاط على الحروف ، ويعرف

الناس، الموافق منهم والمخالف، حقيقة رأى الأستاذ نجيب محفوظ الذى عبر عنه الآن، كما عبرت عنه رسالته الوجيزة إلى ندوة الأهرام.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إنى شاكر ومقدر هذا الاهتمام، ولكنى أشفق على نفسى من فتح باب الأحاديث التليفزيونية.. وأنا لا أزال فى نقاهة لا تحتمل مثل هذا المجهود.. ولكنى ـ بدلا من هذا ـ أقترح أن يكتب الدكتور كمال أبو المجد هذا الحوار الذى دار كما دار.. وسأكون راضيًا عن ذلك كل الرضا..

وفى إطار هذه الرغبة الموثقة بإذن صريح من الأستاذ نجيب محفوظ وبشهادة ثلاثة من ضيوفة الكرام.. ولدت فكرة هذا المقال.. الذى هو عندى شهادة أرجو أن أدرأ بها عن كتابات نجيب محفوظ سوء فهم الذين يتعجلون الأحكام ويتسرعون فى الاتهام، وينسون أن الإسلام نفسه قد أدرج كثيرًا من الظنون السيئة فيما دعا إلى اجتنابه من آثام.. كما أدرأ عن تلك الكتابات الصنيع القبيح الذى يصر به بعض الكتاب على أن يقرءوا فى أدب نجيب محفوظ ما يدور فى رءوسهم هم من أفكار، وما يتمنون أن يجدوه فى تلك الكتابات، مانحين أنفسهم قوامة لا يملكها أحد على أحد، فضلاً عن أن يملكها أحد منهم على كاتب له فى دنيا الكتابة والأدب ما لنجيب محفوظ من القدم الثابتة، والتجربة الغنية، والموهبة الفذة النادرة التى أنعم بها عليه الله.

أدعو الله أن يتم على أديبنا الكبير نعمة العافية حتى يمسك القلم من جديد مواصلاً عطاءه الأدبى الذى يغنى العقل والوجدان، وواهبًا ما بقى من عمره المديد ـ بإذن الله ـ لتجلية الأمرين العظيمين اللذين أشار إليهما فى رسالته إلى ندوة الأهرام: الدين، الذى به هداية الناس وراحة النفوس، والذى يفيء ألوانا من المحبة والسماحة ودفء العلاقات والتسابق إلى الخير، على حارتنا الكبيرة مصر.. والعلم، الذى تحيا به العقول، والذى هو مفتاح أمتنا، وكل أمة، إلى أبواب المستقبل الذى تتزاحم اليوم أمامها شعوب الدنيا كلها لتكون لها مكانة فى ساحته التى تتشكل معالمها الجديدة يوم بعد يوم.

د. أحمد كمال أبو المجد

الأهرام ـ ٢٩ ديسمبر ١٩٩٤